

Texte 6 – Proposition de corrigé

وَفِي الْمَسَاءِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ أَنْطَوَانُ لِيُخْبِرَ الْأَنْسَةَ وَبِزِ أَنَّهُ سَوْفَ يَغِيبُ لِمُدَّةِ أَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَرْكَبَ الْقِطَارَ الْمُنْتَجِهَ إِلَى سويسرا، لَمْ تَهْتَمَّ بِهِ الْأَنْسَةُ الْعَانِسُ إِلَّا أَهْتِمَامَ السَّاهِي إِذْ كَانَتْ بِجُهْدٍ جَهْدٍ تُحَرِّزُ رِسَالَةَ شَكْوَى تَتَعَلَّقُ بِسَلَّةٍ فُقِدَتْ بَيْنَ مَدِينَتَيْ مِيزُونِ لَافِيْتِ وَبَارِيْسِ وَهِيَ جَالِسَةٌ مُنْذُ سَاعَةٍ إِلَى مِنْصَدَتِهَا وَأَنْزَعَا جُهَا يَحُولُ دُونَ التَّفَكِيرِ فِي شَيْءٍ آخَرَ. وَلَكِنْ فِي وَقْتِ مُتَأَخَّرٍ وَبَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ تَحْرِيرِ رِسَالَتِهَا بِعَنَاءٍ وَالْقِيَامِ بِأَعْتِسَالِهَا اللَّيْلِيِّ وَالْإِبْتِدَاءِ بِصَلَوَاتِهَا عَادَتْ فَجَاءَهُ جُمْلَةٌ مِنْ جُمَلِ أَنْطَوَانِ إِلَى ذَاكِرَتِهَا قَائِلَةً: "أَخْبِرِي الْأُخْتِ سَيْلِينَ أَنَّ الدُّكْتُورَ تِيرَفِيي قَدْ بُلِّغَ وَأَنَّهُ يَتَهَيَّبُ لِلْمَجِيءِ عِنْدَ أَيِّ نِدَاءٍ." فَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ عَبَّرَتْ شِقَّتَهَا حَتَّى تَتَحَدَّثَ لِلزَّاهِبَةِ بِدُونِ أَيِّ أَكْتِرَاتٍ لِلسَّاعَةِ الْمُتَأَخَّرَةِ بَلْ دُونَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ تَأْدِيَةِ صَلَوَاتِهَا وَهِيَ فِي عَجَلَةٍ لِلتَّخْلِصِ مِنْ تِلْكَ الْمَسْئُورِيَّةِ.

كَانَتْ السَّاعَةُ قُرَابَةَ الْعَاشِرَةِ وَالْأَنْوَارُ قَدْ أَنْطَفَأَتْ فِي عُرْفَةِ السَّيِّدِ تَيْبُو وَلَمْ يَعْذُ يُضِيءُهَا سِوَى ضَوْءِ هَيْبِ الْحُطَبِ الَّذِي كَانَ يُوجِّعُ فِي الْمِدْفَاقَةِ لِتَعْقِيمِ الْعُرْفَةِ. كَانَ هَذَا الْأَحْيَانُاطُ يَزْدَادُ ضَرُورَةً يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ غَيْرِ أَنَّهُ لَمْ يَقْوِ عَلَى الْبُحَارِ الْحَامِضِ لِلْكَمَادَاتِ وَعَلَى رَوَائِحِ الْإِيثِيرِ وَالْيُودِ وَالْفِينُولِ وَرَائِحَةِ الْبَلْسَمِ الْمُسْكَنِ الْمَائِلَةِ إِلَى رَائِحَةِ زَيْتِ التَّنَعَاعِ وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَمْ يَقْوِ عَلَى رَوَائِحِ الْجَسَدِ الْهَرِمِ التَّنَبَّةِ.

لَمْ يَكُنِ السَّقِيمُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ يَتَأَلَّمُ وَهُوَ نَاعِسٌ بَيْنَ شَخِيرٍ وَتَأْوُهُ. مُنْذُ أَشْهُرٍ وَلَمْ يَرَ جَفْنُهُ النَّوْمَ، تِلْكَ السَّكِينَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْمَرْءُ فِي الرَّاحَةِ. كَانَ النَّوْمُ يَعْنِي بِالنَّسْبَةِ لَهُ التَّوَقُّفَ فِي فَتْرَاتٍ قَصِيرَةٍ عَنْ عَدِّ سِبَاقِ الزَّمَنِ دَقِيقَةً دَقِيقَةً وَكَيْسَ عَدَمِ الْيَقْظَةِ. كَانَ يَعْنِي تَرْكَ أَعْضَائِهِ لِشَيْءٍ أَسْتِرْحَاءٍ لَكِنْ دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ دِمَاغُهُ وَلَوْ ثَانِيَةً وَاحِدَةً عَنْ إِنتَاجِ صُورًا وَإِسْقَاطِ فِيلْمًا غَيْرِ مُنْتَظَمٍ تَتَسَلَّسَلُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ مَقَاطِعُ مِنْ حَيَاتِهِ السَّابِقَةِ وَهِيَ مَشَاهِدُ مُؤَثَّرَةٌ كَمَوْكَبِ ذِكْرِيَاتٍ وَمُرْهَقَةٌ كَكَابُوسٍ فِي آنٍ مَعًا.

وَفِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ لَمْ يَتَمَكَّنِ النُّعَاسُ مِنْ إِزَالَةِ شُعُورِ بِالتَّوَعُّكِ ضَائِقِ النَّائِمِ وَهُوَ مَمْرُوجٌ بِهَلُوسَاتِهِ، شُعُورٌ مُتَزَايِدٌ شَيْئًا فَشَيْئًا يَجْعَلُهُ يَغْرُ فَجَاءَهُ وَهُوَ مَلَا حَقُّ فِي مَبَانِي ثَانَوِيَّتِهِ دَاخِلِ الْمَهَاجِعِ وَالْفِنَاءِ وَالْكَنَيْسَةِ، إِلَى حَدِّ بَاخَةِ الْإِسْتِرَاحَةِ... هُنَاكَ عِنْدَ مَدْخَلِ الْمَلْعَبِ خَرَّ أَرْضًا أَمَامَ تِمثالِ الْقُدَيْسِ يَوْسُفَ وَهُوَ يُمَسِّكُ بِهَامَتِهِ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ. عِنْدَئِذٍ أَنْقَضَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْكَائِنَةُ الْمُرْعَبَةُ الَّتِي لَا أَسْمَ لَهَا، الْحَائِمَةُ فَوْقَ رَأْسِهِ مُنْذُ أَيَّامِ عَدِيدَةٍ، الْأَتِيَّةُ فَجَاءَهُ مِنَ الظُّلَامِ الْحَالِكِ. فَلَمَّا أَوْشَكَتْ أَنْ تَصْرَعَهُ اسْتَيْقَظَ مُرْتَجِفًا.

كَانَ نَوْرٌ ضَعِيفٌ غَيْرٌ مَأْلُوفٍ يُضِيءُ خَلْفَ أَلْسَاتِرِ الْحَشِييِّ زَاوِيَةً مِّنَ الْعُرْفَةِ تَكُونُ فِي غَالِبِ الْأَحْيَانِ مُظْلِمَةً فِيهَا خَيَالَانِ يَمْتَدَانِ إِلَى إِفْرِيزِ السَّقْفِ. فَأَدْرَكَ صَوْتًا يُوشِشُ. إِنَّهُ صَوْتُ الْإِنْسَةِ. تَذَكَّرَ مَرَّةً مَاضِيَةً أَتَتْ تُنَادِيهِ فِي لَيْلَةٍ شَبِيهَةٍ... إِنَّهُ جَاك... وَتَشْنُجَاتُهُ. هَلْ كَانَ أَحَدُ الْأَطْفَالِ مَرِيضًا؟ ... كَمْ السَّاعَةُ؟ أَعَادَ صَوْتُ الزَّاهِبَةِ سِيلِينَ السَّيِّدِ تَبِيوًا إِلَى الزَّمَانِ وَلَمْ تَكُنِ الْكَلِمَاتُ تَصِلُهُ بِوُضُوحٍ. فَحَبَسَ أَنْفَاسَهُ وَأَصْغَى كُلَّ الْإِصْغَاءِ حَتَّى أَدْرَكَتْ مَسَامِعُهُ بَعْضُ الْمَقَاطِعِ بِشَكْلِ أَوْضَحٍ: "قَالَ أَنْطَوَانُ إِنَّ الطَّبِيبَ تَمَّ إِبْلَاغُهُ. سَيَأْتِي حَالًا."

كَلَّا! إِنَّ الْمَرِيضَ هُوَ! لِمَاذَا الطَّبِيبُ؟

عَادَتِ الْكَائِنَةُ الْمُرْعَبَةُ نَحُومًا. هَلِ آزْدَادَتْ حَالَتُهُ سُوءًا؟ مَاذَا حَلَّ بِهِ؟ هَلْ اسْتَطَاعَ النَّوْمَ؟ لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى أَنَّ حَالَتَهُ فِي تَدَهُّورٍ. تَمَّ الْإِتِّصَالُ بِالطَّبِيبِ فِي عُمُقِ اللَّيْلِ. فُضِيَ الْأَمْرُ، إِنَّهُ حَتْمًا سَيَمُوتُ! عِنْدَهَا عَادَ إِلَى ذَاكِرَتِهِ كُلِّ مَا قَدْ قَالَهُ عِنْدَمَا أَعْلَنَ عَلَى الْمَلَأِ، وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ، حَتْفَهُ الْوَشِيكَ فَاْمَتَلَأَ جَسَدُهُ عَرَقًا.

أَرَادَ النَّدَاءَ: «النَّجْدَةَ! أَسْعِفُونِي! يَا أَنْطَوَانُ!» لَكِنَّ بِالْكَادِ اسْتَطَاعَ حَلْفُهُ إِصْدَارَ بَعْضِ الْأَصْوَاتِ، أَصْوَاتٍ مَأْسَاوِيَةٍ لِدَرَجَةِ أَهْمَا جَعَلَتْ الْأَخْتَ سِيلِينَ تُهْرُولُ وَتُرِيحُ أَلْسَاتِرَ الْحَشِييِّ وَتُنِيرُ الْعُرْفَةَ.

ظَنَّتْ لِسَاعَتِهَا أَنَّ وِعَاكَهَ أَصَابَتْهُ فَوَجَّهَ الْمُسِنَّ الَّذِي يَتَّخِذُ عَادَةً شَكْلَ الشَّمْعِ اسْتَنْزَرَ حُمْرَةً وَعَيْنَاهُ بِقَيْتَا مَفْتُوحَتَيْنِ مُسْتَدِيرَتَيْنِ وَفُوهُ لَمْ يَسْتَطِعِ النَّبَسَ بِأَيَّةِ كَلِمَةٍ. وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَعْبَأِ السَّيِّدُ تَبِيوًا بِمَا يَجْرِي حَوْلَهُ فِدِمَاعُهُ يَشْتَعِلُ بِوُضُوحٍ لَا يَرَحْمُ وَأَفْكَارُهُ مُتَصَلِّبَةٌ عَلَى الْفِكْرَةِ الْوَحِيدَةِ. فَفِي ثَوَانٍ قِصَارٍ اسْتَعَادَ وَقَائِعَ سُقْمِهِ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ وَالشُّهُورِ الْمُرِيحَةِ وَالنَّكْسَةِ ثُمَّ التَّوَعُّكِ التَّدْرِجِيِّ وَالْأَلْمُ الْمُتَكَرِّرِ الَّذِي يُقَاوِمُ الْعِلَاجَاتِ يَوْمًا تَلُو الْآخِرَ. تَسَلَّسَلَتْ كُلُّ التَّفَاصِيلِ لِتَفِيدَ أَحِيرًا مَعْنَى. فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ بِالذَّاتِ، لَمْ يَبْقَ لِلشَّكِّ مَجَالٌ! وَفَجْأَةً وَقَعَ فَرَاغٌ وَحَلَّ مَحَلَّ الْمَكَانِ الَّذِي قَبْلَ دَفَائِقِ سَادَةِ الشُّعُورِ بِالْأَمَانِ، شُعُورٌ لَوْلَاهُ لَا حَيَاةَ مُمَكِّنَةٌ. وَقَعَ الْفَرَاغُ فَجْأَةً، مِمَّا أَخْلَى بِالتَّوَازُنِ كُلِّيًّا. فَالْبَصِيرَةُ ذَاهِبَةٌ وَتَرَكَتْهُ وَلَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ التَّفَكِيرُ بِشَيْءٍ. إِنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ لِشِدَّةِ مَا يُعَدِّيهِ بِشَكْلِ أُسَاسِيٍّ الشُّعُورِ بِمَا هُوَ آتٍ لَمْ يَعُدْ لَهُ إِمْكَانِيَّةٌ لِأَيَّةِ فِكْرَةٍ فِي السَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا أَلْعِيَتْ أَدْنَى إِمْكَانِيَّةٍ لِمُسْتَقْبَلِ مَا، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَصْطَلِدُ كُلُّ أَنْدِفَاعٍ نَابِعٍ مِنَ الذَّهْنِ بِالْمَوْتِ بِدُونِ تَمْيِيزٍ.

انْقَبَضَتْ يَدَا السَّقِيمِ عَلَى الشَّرَاشِفِ وَأَسْتَوَى عَلَيْهِ الْخَوْفُ. وَدَّ الصُّرَاخَ لَكِنَّهُ مَا اسْتَطَاعَ. شَعَرَ بِأَنَّهُ
مَخْطُوفٌ مِثْلَ الْقَشَّةِ فِي أَهْيَارِ ثُلْجِيٍّ فَلَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِشَيْءٍ إِذْ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ عَرِقَ وَأَنْزَلَقَ
مَعَهُ... وَفِي الْأَخِيرِ أَرْزَخَى حَلْقُهُ فَأَقْتَحَمَهَا الْخَوْفُ وَأَنْبَتَقَ فِي صُرَاخٍ مُرِيعٍ أَخْتَنَقَ لِتَوَّهِ.

لَمْ تُحْسِنِ الْآنِسَةُ اسْتِقَامَةَ ظَهْرِهَا الْمُنْحِنِي لِتَرَى مَا يَخْدُثُ فَهَتَفَتْ هُتَافاً حَادِئاً :

- إلهي ! ماذا جرى ؟ ماذا جرى يا أختاه ؟

لَمْ يُجِبِ الرَّاهِبَةُ فَفَرَّتِ الْآنِسَةُ.

ماذا عساها تفعل ؟ من تُنادي ؟ إِنَّ أَنْطَوَانَ غَائِبٌ. الْأَبُ ! الْأَبُ فيكار !

كَانَتْ الْخَادِمَاتُ لَا يَزِلْنَ فِي الْمَطْبَخِ وَلَمْ يَسْمَعْنَ شَيْئاً. رَسَمَتْ أَدْرِيَانُ عَلَامَةَ الصَّلِيبِ عَلَى جَسَدِهَا
عِنْدَ سَمَاعِهَا أَوَّلَ كَلِمَاتِ الْآنِسَةِ الْعَانِسِ لَكِنَّ كَلَوْتِيلِدَ شَبَكَتْ شَاهَا وَأَمْسَكَتْ بِمِحْفَظَتِهَا وَمِفْتَاحِهَا وَفَرَّتْ
جَارِيَةً.

مِنْ آلِ تَيْبُو. الْجُزْءُ السَّادِسُ : وَفَاةُ الْوَالِدِ لِرُوجِيهِ مَارْتِينِ دِي
غَار، ١٩٢٩